

فلما سمعت مقال أبيها ورأت التفاته إليها، قالت في طمأنينة وهدوء: «إنه السحر لأنه غير مفهوم، وسيظل سحرًا ما دام سرًّا مكتومًا، فإذا أزيلت عنه الأستار وفُهمت مخابآته أصبح علمًا شائعًا يشارك فيه القادرون على فهمه والنهوض بأعبائه.»

قال الملك: «ومتى يمكن أن يفهم، وأن يكشف عن مخابآته؟!»

قالت فاتنة: «بيننا وبين ذلك آماد يا أبت، فيجب قبل كل شيء أن تنجلي الغمرة، وتكشف الغمة، ويُرد المغيرون إلى أوطانهم مقهورين. ماذا أقول؟! بل يجب أن يستسلم المغيرون، وأن ينزلوا من هذا القصر نفس المنزلة التي كان كل واحد منهم يريد أن أنزلها من قصره.»

قال الملك: «فأنت تريدين إذًا أن يستأسروا.»

قالت فاتنة: «ما من ذلك بُدُّ. يجب أن يستأسروا، ثم يجب أن يذعنوا ويؤمنوا ويتلقوا ما يُملَى عليهم من أصول الصلح التي يقوم عليها نظام الحكم عندهم وعندنا، فليست المسألة أن تثار الحرب ثم تخمد نارها، وإنما المسألة أن تُمنع الحرب من أن تثار أو أن تُمنع الحرب إذا أثرت من أن تصيب الأبرياء بما لا ذنب لهم فيه ولا حق لأحد أن يصبّه عليهم من الموت والدمار.»

قال الملك وقد أخذ الرضا يعود إلى قلبه، وجعل البشر يفيض من وجهه: «هذا كثير يا ابنتي! هذا أكثر مما كنت أرجو! هذا أكثر مما كنت أنتظر! هذا أكثر مما كنت أظن! إنك لتكلفيننا أعظم مما نستطيع أن نحتمل، وتتنقلين بنا بين اليأس والأمل وبين الخوف والأمن في سرعة ولباقة لا قبل لنا بهما، ولكن أبيني يا ابنتي كيف السبيل إلى أن تبُلغي من خصومك ما تريدين، وهؤلاء قوادنا يريدون أن يقدموا فلا يتاح لهم الإقدام؟ لقد وقف خَصمك عن الهجوم ومنعتهم أن ينالوا منا ما يحبون، فأبلغينا منهم ما نحب، وخلي بين جيوشنا وبين الهجوم، فلما أظن أنك تريدين أن تتواقف الجيوش على هذا النحو دون أن يستطيع فريق أن يبلغ من عدوه شيئًا.»

قالت: «بل أنا لا أريد غير هذا يا أبت.»

ثم ابتسمت له ابتسامة ملؤها الحنان والبر وقالت: «ألم تكن تذكّرني منذ حين يما يجب أن يستشعر قلبي من الرحمة والرفق، لا برعيتنا وحدها ولكن برعية هؤلاء المعتدين أيضًا؟! فإن هذه الحرب، كما كنت تقول، لا تعني رعيّتنا ولا رعاياهم من قريب أو بعيد؛ وإنما هي شهوة جامحة دفعتهم إلى الشر والكيد، فأردت أن ألقى شرهم بمثله، وأن أدبر لكيدهم كيدًا مثله؛ فما ينبغي أن نغامر نحن ويشقى الأبرياء، وما ينبغي أن يمس رعيّتنا